

استقبل شفروت في السجن صديقه وكان برفقة رجل لا يعرفه. وتقبل بفرح هدايا الزائرين: انه ما زال يوجد من يهتم به... غير أن هذا الفرحة كان مشوبا ببعض التحفظ إزاء ثاني الزائرين... وهو لا يذكر أنه رآه لا في الحي ولا في أي مكان آخر. والزائر وان بدا بثيابه العادية ككل من تعرف عليهم في الحي فطريقة حديثه العصبية وكثرة حركات يديه ثم هاتان النظارتان السميكتان على عينيه كل هذه العلامات جعلت شفروت الكبير يقف منه موقف المتحفظ. أياكون أحد أقرباء شفروت الصغير؟ ولكن هذا حدثه مرات أن ليس له أقرباء يزورونه..

- أقدم لك أمين

- أنا سعيد بمعرفتك ياسيد أمين... وأنا شفروت..

- أعرف ذلك... كما أعرف عنك أكثر مما تتصور.. أنا أيضا سعيد بمعرفتك... كيف يعاملونك هاهنا؟

- هكذا... هكذا... على كل لن يخطئ من يعرض بالداخلية بأية طريقة كانت وحتى من دون حجج...  
...دولة ظلامية.. إنها دولة وسط الدولة

- هي كذلك في كل مكان.. لو أعطيت قديسا ملك رقاب الناس ونسائهم ما تقدس فكيف بك وأنت

تعطيه مكبوتين من الدرجة الأولى وعلى كل المستويات؟

فتصنع شفروت الكبير الابتسام وهو يحاول القراءة في وجه أمين الغرض من زيارته ومعرفة سبب

اهتمامه به

أنت من سكان الحي؟-

- لا.. لقد جئت هذا الصباح.. أسكن في العاصمة.. لا شك أنك تود أن تعرف عني أكثر من هذا..

استطيع أن أقول لك إنني مازلت أدرس في الجامعة كلية الآداب. فلسفة.. تحصلت على إجازة في

العربية والآن أعمل وأدرس في نفس الوقت ضمن شعبة الفلسفة

- العربية قلت؟ هذا جميل.. ما زال في البلاد العربية أناس يتعلقون باللغة العربية.. أسألك عن ذلك لأنني درست في الجامع منذ عهد طويل... الناس يتعلقون بما ألفوا من الأشياء.
- أنت دكي يا شفروت.. من فضلك نادني باسمي فقط مجردا من هذه الخزعبلات المدحية: ياسيد.. يافخامة... هذه الألقاب أصبحت علامة سيئة.. لا شك أنك تتساءل عن سبب زيارتي لك.. لقد قلت لك انني جئت الحي هذا الصباح ولأول مرة.. ولقد جئت لأسأل عنك فلم يتكلم شفروت
- سألت بعض المارة فدلوني على بيت صديقك شفروت الصغير. اسمح لي أن أبدي استغرابا من اتفاق الاسمين. وهو الذي قادني إليك
- وعدل نظارتيه ثم اخذ من جيبه علبة جيتان قدمها إلى الرجلين غير أن شفروت ألح عليه أن يدخل من سجائره (التروب) فقبل أمين باسمنا
- ارغب في الحديث معك في أمر هام.. كنت أود لو كنا على انفراد مع اعتذاري للسيد شفروت الصغير..
- فقاطعته السجين باسمنا
- إن ما تقوله لي لا بد أن يعلمه شفروت الصغير سواء أ كان ذلك في حضورك أم غيابك. انك لا تعرفنا بعد يا سيد أمين
- أمين من فضلك,, أنت مخطئ,, أنا أعرفك جيدا,
- ولكن لم تقل لي إلى الآن كيف أنك تعرفني اا
- هذا من حقك,, إن لي صديقا في المحكمة,, محام,, لا تغضب,, ليس هو الذي دافع عنك,, كان حاضرا يوم محاكمتك,,
- وانتفض شفروت الكبير وبدا عليه الامتعاض
- أيضا,, المحكمة دائما المحكمة,, لقد انتهى الأمر,, انتهى منذ زمان,, لم يبق غير أيام قليلة

وأغادر السجن,, لا أريد أن يحدثني أحد في ذلك,, لقد انتهت هذه الحكاية,,

- هيا شفروت,, لا تغضب,, أنت رجل دكي وتعرف أن مثل هذه الأمور لا تمحي,, لا تمحي وان كان

الحكم أساسه الخطأ,, إن الواقع شيء والفكر شيء آخر,, لا تتخيلني رئيس محكمة أو أي

شيء من هذا القبيل,أنا على يقين من براءتك أو على الأقل من حسن دوافعك,,أنا أعرف أن آلاف

السراق وقطاع الطرق يرتعون في الجنة,جنة في الأرض يتوفر فيها ما لا يتوفر في عالم آخر,, لا

بل إن كثيرا منهم وضعوا على عاتقهم مهمة تشريع القوانين دفاعا عن جنتهم من الغزاة

البائسين,,ادن، لا تظنن بي شيئا,,لست رئيس محكمة,

حك شفروت الكبير رأسه وبدا عليه أنه يبذل جهدا كبيرا لمتابعة هذا الفيض من الكلام ووجد فيه

سحرا يبعث على الانتحار, ومع ذلك غامر بسؤال محدثه

- ومادا ينفع أن يعرف الإنسان ذلك؟ أنا هنا من دون شيء,, سأخرج عاريا كما دخلت، من دون

جواز سفر، من دون شيء,, وسيصعب علي حتى العثور على عمل نادل

-عندك الحق يا صديقي,, إن الكلمة في بعض الحالات تصير نوعا من البغاء يتمعش منه

التمتعشون من الخنى العلني في الخطب والأدب والدين,, ولكن الكلمة,,

وبعد تردد

- لقد تعبت من الكلام,,سامحني,,أصبحت أكره الكلمة,,

في حالات أخرى تملك من السحر ما يعطيها سببا في الحياة,,

- هذه فلسفة,,

- هدا واقع,,قل لي بربك ما الذي صيرك في عرف الجميع مجرما هنا وفي مرسيليا؟

- مرسيليا ؟ وتعرف ذلك أيضا؟

- نعم أعرف ذلك,,لقد صيرك الخيال مجرما,, والخيال وجه مضى من الكلمة,,ما كان الخيط الأحمر

في وجه (كلير) ليثير فيك شيئا لولا الكلمة تحولت خيالا، خوفا من التشويه والبشاعة,,



الدعارة واضحا جليا في جبرية دينية؟ وهل صحيح أنه يمكن للظروف الجديدة أن تفسح أمام الإنسان خيالا جديدا لا تزوره صور الدم والتشويه؟ ما أصعب أن يوجد هذا ،، ولكن أليس لهذا الحلم من السحر ما يغدق على القلب فيضا من النشوة؟ حقا إن الكلمة أحيانا فوق كل شيء،،

كان أمين يرمقه وهو غائب في تأملاته وعندما رآه يمد يده إلى جيبه ليشعل سيجارة جديدة بادره

بالسؤال

- هل ما زلت تعتقد أن هذه مجرد فلسفة ؟
- لا،،، انه اليأس يحول الإنسان إلى شبه جدع نخر
- سوف تجد عملا عندما تغادر السجن،، في المصنع،،
- هذا صحيح ؟
- إن المحاسب صديقي،، هو عضو في منظمنا،، لقد تحدثت معه في الأمر فأكد إمكانية قبولك في المصنع،

- هذا رائع،،

والتفت إلى شفروت الصغير يربت على كتفه

- أنت لا تهنئي ،، هل سمعت ما يقول أمين؟

- أهنتك،

كان شفروت ما زال غائبا في تأملاته،، فلأول مرة يصدمه إنسان يتحدث عن

السياسة،، لقد تعود أن يكره السياسة كما يمارسها أبوه،، وهو الآن يكتشف أن الإنسان

الحقيقي سياسي بالطبع،،

ولاحظ أمين

- لا تندفع هكذا يا شفروت،، العمل ليس غاية،،،

- انه أصبح غاية بفعل هذا الوضع المرير ,
- صدقت,, ولكن توجد أمور يجب أن نتفق عليها منذ الآن,,ستزورنا في تونس بعد خروجك وستناقش في أمور أخرى أدق,,إنما المهم الآن هو أن تبقى زيارتي هذه سرا بيننا, لا يجب بأية حال من الأحوال أن يعلم العمال أنني تدخلت من أجلك لدى المحتسب,,
- فكر شفروت الكبير وهو يحك رأسه
- أفهم,, أفهم ,, هذه الأفكار لا بد أنها تذهب النوم عن أجفانهم,,أقصد الحاكـم,
- نعم , خصوصا في ما يتصل بالعمل والعمال,كما أنه لا يجب أن تتصل بصلاح المحتسب إلا في ما يخص العمل,,ستراه في النادي عندما تزورنا,,
- وما الذي يجب علي عمله عندما أغانر السجن؟
- تمكث يوما أو يومين من دون حركة ثم تتصل بصلاح,,
- وأخرج من جيبه ورقة مالية بمبلغ عشرة دنانير قدمها له
- ما هذا ؟
- لا تصرخ هكذا,,سأستردها منك حالما تقبض أول مرتب لك,
- هكذا أقبل
- أنصحك بالقبول ادا أردت ألا تبقى من دون سجائر
- قالها أمين وهو يبتسم بصفاء ثم قام وهو يصلح من ثيابه ومد يده إلى شفروت الكبير فتشبت بها فكان هذه الحركة كانت بالنسبة إلى السجين بداية عهد جديد,

قرر رأى شفروت الكبير على الاتصال بأمين والجماعة في تونس بعد أسبوعين من خروجه من السجن فبدأ رحلته بالمرور أمام بيوت البغاء المغلقة و نصف المغلقة يتملى في وجوه الواقفين والنساء شبه العاريات تدخن في شبه موت سيجارة رفيعة في جو يشل الغريزة الجنسية أكثر مما يحييها . كان على الأقل قي الماضي لا يستنكف من مداعبتهن كان له مال كاف للدخول مع إحداهن أم لم يكن... وتحول الأمر إلى نوع من الشعور السيئ لا دخل للاحتقار فيه ... المتشابهون...نوع من السمو المفروض عليه من فوق... أصبح عاجزا عن الاهتمام بلحظة النشوة القصوى مع هؤلاء النساء لأنه الآن يتخيلها ولم يخط بعد خطوتين بين هذه البيوت المنتنة . في النادي لم يكن ينتظر أن يجد بين الجماعة عددا كبيرا من الشباب فضلا عن أن يجد بينهم فتاة كسعاد. كانت هذه الفتاة العملاقة تناقش الجماعة بصخب ولا تستقر في مكان...غير أنه أحس رغم هذه المفاجأة إحساسا لذيذا وهو يرى أمين ينهض إليه ويصافحه بحرارة وهو يقدمه للجماعة ..

- هدا شفروت.. أنتم تعرفونه.. سماعا على الأقل..

ويطوف به بين الطاولات والكراسي

- هدا صلاح، أن تعرفه..عمر، طالب، فلسفة..صالح، طالب في فرنسا، حقوق..هده سعاد، رئيسة قسم..جاك، متعاون في الفلاحة..وهذا أنا، أميين..أطلب منك أن تعتبر نفسك بين أصدقاء تعرفهم مند أعوام.

وحمل إليه كرسيًا من زاوية في الشقة

- أرجو ألا أكون قد أقلقتمكم..

- اجلس، اجلس، نحن الدين استدعيناك..

كان وضع الجالسين وتناثر المجلات والأوراق على الطاولة الكبيرة يوحي باحتدام النقاش بين الجماعة قبل دخوله فربض في مكانه واكتفى بتفقد الشقة بعينه. لا شيء يدل على أنها مسكونة فهي تكاد تكون خالية إلا من هذه الطاولات والكراسي ورفوف مكتبة مكتظة بالكتب والمجلات... وتحول شعوره الأول بالارتياح عندما استقبله أمين بحفاوة إلى شعور تحفظ مشوب بالقلق وأمين يقدمه إلى الحاضرين: طالب، رئيسة قسم، متعاون... ما موضعه هو بين هذه الفئة من الناس؟ وما الذي دفع بهؤلاء "الواصلين" إلى الاهتمام به؟

وبدأ يفكر لأول مرة بجديّة في سبب هذا الاهتمام

وقام صلاح من مكانه وراء الطاولة وهو يحمل كرسيه وجلس بجانب شفروت الكبير وكأتمًا أحس الجميع بضياعه فعملوا على تبديد هذا الشعور

- هل أعجبك العمل في المصنع؟ كنت أود أن أحدثك عندما جئت لأول مرة... ولكنني امتثلت

لأوامر أمين.. هو يصر على ألا أتحدث مع العمال خارج مواضيع العمل

- أعجبنى جدا.. إن هذا العمل يذكرني بمرسيليا.. عملت هناك مدة في الخراطة.. لقد كدت أنسى

هذه المهنة منذ أن أرجعت كرسيها إلى تونس

وتفطن إلى أنه يتحدث كثيرًا فحوّل مجرى الحديث

- أحس أنني قطعت عليكم نقاشًا حادًا

- هذا صحيح

وتدخلت سعاد

- كنا نحلل التوجه الأخير للسلطة

- السلطة؟



قالها في شبه خوف فابتسمت الفتاة الطويلة وأضافت ببرود

— سوف يذهب عنك هذا التقديس بعد مدة . كنت أناقشهم في تفسير هذه العودة إلى الدين بعد المعاداة الشديدة التي امتازت بها الخمسينات ... هل سيب ذلك الخوف من تضخم صف اليسار؟ إن أميين يصر على أن مثل هذه المناقشة لا تهم.

— وأواصل اعتقاد ذلك، ما فائدة أن نمضي وقتنا في تحليل تركيبة السلطة مم تخشى ؟ هي ليست فريدة من نوعها في هذا السياق...والدراسات القديمة تكفي لتصنيفها في نصف دقيقة ضمن سلطات العالم السابع لا تجد بعد الاستقلال ما تقدمه لشعوبها فيتحول المجهود الفكري لمنظريها إلى فنقلة حول معرفة ما اذا كان من الرجولة أن يطيل الإنسان شعر رأسه وما إلى ذلك...نحن نعرف ذلك وأنا أطلب أن نطوي صفحا عن مثل هذه المناقشات..

— لن أعارضك في هذا . إنما ألاحظ لك أن خمسة ملايين إقليلا من البشر يعيشون على هذه الأفكار التي تراها سخيفة وهم مستعدون لشنقك متأثرين بمثل هذه الأفكار .

— ذلك لأنهم ضحية الفقر والجهل

— أرجع ذلك لأي سبب تريد,,أنا على يقين أنك لن تؤثر في أي واحد منهم ولو حدثته يوما كاملاً عن الحكم للطبقة الشغيلة... ستقول لي إن ذلك راجع إلى أن أكثرية الشعب متكونة من الفلاحين وأن هؤلاء رغم أهميتهم الاجتماعية ليسوا قادرين على الفهم أو الإفهام ، وأن فاعليتهم ستبقى معدومة إذا لم يمسهم العمال بأجنحتهم ..ولكن هل لك عمال؟ أي هل لك وعي طبقي؟ أي هل لك طبقة عاملة الآن يمكن أن تقوم بهذا الدور؟

وتدخل عمر في استنكار

– وهل تشكين في وجود ذلك ؟

– ليس هكذا يكون السؤال .. أنت تسأل بطريقة لا أحبها .. العمال موجودون في كل مكان .. ولكنني

أحدثك عن طبقة في إمكانها أن تسمع خطب المسؤولين كما تسمع حديثا مقلقا يجب وضع حد له .. هذه هي الطبقة القادرة على ضرب البورجوازية الكمبرادورية ضربة قاضية .. أنا أحدثك من دون أن أفقد الصلة بالأرض . يجب أن ندخل البيوت من حيث دخلها الدين يحكمون الآن ولو أدانا ذلك إلى تنازلات لن يرضى بها أمين مثلا .

وقاطعها أمين في لهجة حادة مشوبة بالسخرية

– ومن يتركك ؟

– أفرض نفسي ... إنهم يرون أن المشاكل تحل عن طريق الإصلاح .. لا بل عن طريق تحديد النسل . هذه إستراتيجية تمكنهم من امتصاص دماء الناس أطول مدة ممكنة .. والوضع الراهن يضطرني إلى التسرب إلى معاقلمهم والتشكيك في صحة هذه الإستراتيجية من الداخل ..

– البرلمان .. الحزب ... مقعد مراقب وسط مائة مقعد من غلاة الظلاميين وأساطين التعذيب؟

– مثلا

– لا يا آنستي .. لا أظن أن واحدا هنا يمكن أن يوافقك .. ولا أظن أن هد أرضية صالحة للعمل الجاد

فلم يسجل التاريخ دخول عناصر قليلة معادية في صلب هيكل مغلق من دون أن يلفظها هذا الهيكل ..

والآن فلتسمحي لي بأن أقرأ عليك فقرة قصيرة : (إذا كنا نعتقد أن التناقضات الاجتماعية بين

البروليتاريا والفلاحين تمنع العمال من القيادة وأن العمال بمفردهم غير قادرين على افتكاك النصر

فإننا نصل إلى ضرورة تقرير أن الثورة قدر لها ألا تنتصر)

– تروتسكي ؟

– نعم

— لم أقل ما يناقض هذا الكلام. كل ما قلته هو أن هؤلاء العمال لم يوجدوا بعد وأنه في سبيل إيجادهم يجب أن ندخل مسام النظام الحاكم... من دون ذلك يبقى كلامنا مجرد حديث في شقة مغلقة...

كانت حدة النقاش تقتصر على أمين وسعاد. تدخل عمر مرة. أما البقية فظهروا وكأن هذا الجدل ثقيل على أعصابهم. لقد قتلوا هذا الموضوع بحثاً ولم يبق واحد منهم يود مناقشة الفتاة في هذا الأمر. الاتجاهان واضحا فلِمَ المـزـيـد مـن الصياح؟

لقد كانوا يعتقدون أن الحل الوحيد يكمن في الاتصال بالعمال بطريقة تكفل سريعا بعث المد الثوري من الخمول الذي حل به بعد الاستقلال. هذا عندهم هو العامل الوحيد الذي سيضطر الدولة إلى مزيد من الشدة وإلى مزيد من التعرض بذلك للضربات لأن الوقت لا يعمل لصالح الحزب الواحد الحاكم في البلاد... كلهم يتصورون أن البلاد تسير نحو العاصفة والمطلوب هو أن يبذلوا جهودهم لتقصير حياة من يسمونهم بالمناضلين المزيفين.

وانتقل أمين إلى شفروت وقد تعب من الجدل وكأنما تفتن إلى وجوده من جديد

— ها أنت ذا شفروت . ما بك؟ كأنك نائم؟

— أحس برأسي يدور... تتكلمون بالفرنسية ولا أتقن منها غير لغة الشارع.. كل هذه الأفكار... حاولت أن أتبع كلامكما من دون جدوى في كثير من الأحيان.. ولكن..

— تحدث بكل صراحة

— أتعرف، لست جاهلا تماما، لقد درست من قبل، في الجامع على وجه التحديد، وسمعت الكثير عن الشيوعيين.. أنا أوافقكم في آرائكم.. أنت تعرف ماضي.. ليس لي ما أخسر.. ولكن كيف يعمل إنسان وتفتك في الآخر ثمرة عمله؟

فابتسم أمين وهو يعدل من نظارتيه واتجه إلى أحد الرفوف ثم عاد بكتاب بحث فيه مدة ليتوقف أمام  
جملة مسطرة:

— لك الحق في التساؤل ..سوف لن أجيب أنا..هل تود أن تقرأ هذا ؟ عفوا سأترجم لك الجواب  
عن سؤالك: " إن ما يميز الشيوعية ليس هو القضاء على الملكية عامة ولكنه القضاء على الملكية  
البورجوازية...انه ليست بنا حاجة للقضاء على ملكية الفلاح أو البورجوازي الصغير، ثمرة عمله  
وموهبته..إن البورجوازية يستبد بها الفرع لأننا نريد القضاء على الملكية الفردية ولكن الملكية  
الفردية في المجتمع مقضي عليها بالنسبة إلى تسعة أعشار السكان..."  
وأغلق الكتاب وهو يرفع إليه رأسه

— رائع ..هذا رائع..هل يمكن أن أحصل على هذا الكتاب؟بالعربية طبعاً؟  
— سأعطيك ما تريد ...بشرط ألا تتحدث في هذه الأمور إلا مع من تثق فيهم...هذه الأمور غير  
مباحة في هذا البلد.

— أعدك بذلك

(19)

تقابلت سارة وشفروت منذ الصباح بعيداً عن البناية والحي معاً ..كان يدور في رأسيهما برنامج غريب: أن يبنيا كوخاً صغيراً من بقايا الشجر والصخور بعيداً عن الأتظار في مأمن من المطر والهجرة ..كان شفروت الصغير هذا الصباح كعادته دائم الأناقة بينما ارتدت سارة بنوارا واسعا باليا لاشك أنها وجدته في مكان مهجور من البناية يناقض تورد وجهها وحمرة بشرتها بدا بعض صدرها من خلاله صغيرا بارز العظام ..كان الثنائي بادي الفرحة ..تلاقيا من دون كلمة. وبعد أن وقف شفروت يتأملها باسمًا احتضنها وقبلها وهو يقول:

— ما هذا الذي تلبسين ؟ بنوار أمك ؟

— ؟

— ما الذي يحدث لك فجأة ؟

— لا تذكر أمي هكذا ..أنت لا تحسن الكلام طول الوقت ..ألا فلتصمت.

فقبل جبينها ولم يتكلم ..كان يعرف أنها مصيبة في قولها فلم يحدث أن تكلم فلم يزد عدوا أو يبعد

صديقا. لقد بدأ عييا فليكمل عييا ..المهم، سبب حياته الآن، هو أن تكون سارة بجانبه.

— ها أنت ذا أحسن من ذي قبل، ها أنت لا تتكلم ..لقد ماتت أمي منذ زمن بعيد ولا أحب أن يذكرني

أحد بها بهذا الشكل الساخر ..وقاحة الكابتان كـ تكفي ..

— أطلب المعذرة يا سارة ..هل نبدأ الآن ؟

— نعم، حتى لا يباغتتنا المطر ..

لقد اختارا موضع البناء منذ مدة .ورغم عدم موافقته الأولى على هذا المكان بحجة ابتعاده في الخلاء فقد اضطر في النهاية إلى النزول عند رغبة سارة .كانت تعرف المنطقة حجرا حجرا وأكدت أن الجن لن يعثر عليهما بين هذه الأشواك والصخور ونبات السعتر فضلاً عن الكابتان كـ .أو المتطفلين من سكان الحي .وأخرجت من حقيبة صغيرة مطرقة وشاقورا وضعتهما جانبا ثم بدأ في حمل الصخور.

— سارة، حقاً إنه لمكان مسحور !..

— أريت ؟ هات تلك الصخرة .. لا .وراءك ..

— إنها ثقيلة ..

وتعاوننا على تقليبها حتى الموضع المختار .وما أن بلغاه حتى بدأت سارة تسعل بشدة وقد احمرّت

وجنتاها أكثر ونهرته بين أزميتين من السعال

— لا تنظر إليّ هكذا ..هذا يهمني وحدي ..

— لقد قلت لك ألف مرة ألا تخرجي حافية أو عندما يشتدّ المطر ..

وتعلّقت عيناه برجليها الحافيتين فكظم غيظه وتظاهر بحمل الصخور.

— لم لا تصرخ ؟ تريد أن أجر حذاء بين هذه الصخور، في الوحل ؟

— الأحسن ألا أتحدّث ..أعرفك متوحشة لا تقبلين بنصيحة ..

واقتربت منه فتهرّب من عينيها حتى لا يضعف ولكن سرعان ما غلبته ابتسامه حزينة

— آه يا سارة ..أنت لا تفهميني ..إنني أحس ألما في رئتي وأنا أسمعك تسعلين ..لا أريد أن أفرض

عليك حتى النصيحة ..في هذا فقط أطلب منك أن تسمعي كلامي ..واقعلي بي ما تشائين ..

أخذت وجهه بين يديها حتى ينظر في عينيها من دون هروب وقالت وهي تحس بنشوة الألم في

صدره وهي تسعل

– لن تفرض عليّ أي شيء ..

وأضافت بعد مدة وهي تتلذذ بكل حرف تنطق به

– كأنك تموت بموتي !..

– سارة لقد أحببت فيك حتى نفسي ..سارة ..أيتها اللعنة اللذيذة في سمائي ..أيتها الجنة ..إنك

الرب أعبدته لحظة غيم الكون لوفاة الرب في عقلي ..دمك دمي ..جسدك جسدي .هل لي أن أبرّد

شفتائي في رضاب ثغرك الدامي ..هل لي أن أشرب من ماء روحك المتوحشة يا سارة وقد نضبت

عروق روحي ..يا أيتها الصغيرة المتوحشة ..يا أمي ..إنني أحبك حبا دمويا ..وجدب جسده بعيدا

واتجه نحو بعض الصخور محوّلًا عنها وجهه فأحست بدموعه في وجنتيها ومدت أصابعها تمسح

خدها وقد اشتد بها السعال وبدأت قطرات من المطر تضرب وجه الأرض الموحلة

– سأفعل ما تقول .

قالت ذلك وكأنها إنما تفعله من أجل شفروت الصغير فقط، بلا اقتناع.

– لن تحملي بعد الآن شيئًا ..سأحمل لك من الصخور ما تشائين.

وبدا الرضاء في صوته. كانا يظهران من بعيد صغيرين في حجم طفلين يزن الوهم ما لا يزنه

جسماهما وكانت دموعهما الصافية لا تختلف في شيء عن هذه القطرات السماوية تضرب صفحة

وجه سارة المورد ..ونزلت عند رغبته فاكتفت بتصنيف الحجر وتشذيبه وهي تنظر من حين إلى

آخر إلى شفروت مبتسمة

– لو علم الكابتان ك. بما ندبره لنصب لك فخاخا على طول الطريق ، تماما كما يفعل بالنسبة إلى

الأرانب..

– الكابتان ك. الوغد ..لا تغضبي ..إنما أنا أحقد عليه أكثر من أي واحد آخر في الوجود.

– أَعْضِبْ؟ يَا لَكَ مِنْ أَرْنبٍ جَمِيلٍ ..ثِقْ أَنِّي أَدْفَعُ كَثِيرًا فِي سَبِيلِ تَخْلِيصِ مَا يَسُدُّهُ لِي مِنْ صَفْعَاتِ كُلِّ يَوْمٍ ..

فَرَفَعَ رَأْسَهُ عَنْ حَجَرٍ هُمْ بِاحْتِضَانِهِ وَقَالَ بَغْبَاءَ :

– هَلْ يَضْرِبُكَ؟

– هُوَ يَضْرِبُ كُلَّ النَّاسِ فِي الْبِنَايَةِ ، حَتَّى أَبَاهُ إِنْ صَادَفَهُ مِنْ دُونِ بِنْدِيقِيَّةٍ ..هُوَ لَا يَحْتَمِلُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى الْحَيِّ كَمَا لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَخْتَرِقَ أَحَدَ مَزْرَعَتِهِ ..أَخْشَى أَنْ يَصِيرَ إِلَى الْجُنُونِ خَاصَّةً هَذِهِ الْأَيَّامَ وَقَدْ كَثُرَتْ تَغْيِبَانِي ..

وَبَعْدَ صَمْتٍ قَالَتْ فِي خَبَثٍ:

– أَلَا تَخْشَى أَنْ يَقْتَنَصَكَ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ؟

فَانْتَصَبَ أَمَامَهَا فَجَاءَ وَقَدْ ضَرَبَهُ لَوْنُ صَوْتِهَا

– مَاذَا تَظُنِّينَ؟؟ أَنَّنِي جَبَانٌ؟ أَعْرِفِ مَا تَظُنِّينَ ..هَذَا مَا عَلَّمَكَ حَمَادِي ..

– يَا غَبِي ..لَا تَفْزَعِ هَكَذَا ..إِنَّهُ مَجْرَدُ سُؤَالٍ سَادِجٍ ..

فَقَالَ بَعْدَ تَفْكِيرٍ

– الْمَهْمُ أَنَّنِي أَحْبَبْتُكَ، ثَعْلَبًا كُنْتُ أَمْ دَجَاجَةً ..أَلَا يَكْفِيكَ هَذَا؟

فَتَصَنَعَتْ الْإِسْتِنكَارَ مِمَّا ذَهَبَ إِلَيْهِ وَقَالَتْ

– لَقَدْ قَلْتُ لَكَ أَلْفَ مَرَّةٍ إِنَّنِي أَحْبَبُ الدَّوَابَّ ..

– مَتَوْحِشَةٌ.

وَانْقَطَعَ الْكَلَامُ بَيْنَهُمَا وَتَشَاغَلَ كُلُّ بَعْمَلِهِ وَهُوَ يَسْتَرْقُ النَّظَرَ إِلَى الْآخِرِ ..وَلَكِنْ شَفْرُوتِ الصَّغِيرِ لَمْ

يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكْبِحَ لَذَّةَ مَفَاجِئَةٍ فِي إِذْنِهَا



– إنَّ الكابتان ك. . على حق حينما كان يضربك كل يوم ..

– آه حقا .. يا لك من إنسان قارَّ في أفكاره .. ومع ذلك فأنا الآن أتمنى من كل قلبي أن تجد نفسك

مرة أمامه وجها لوجه ..

ضاعف المطر من نزوله وبدأت همهمات الرعد ضعيفة فخطر ببال شفروت الصغير أن سوء الطقس

قد بعث شراسة سارة فبدت متعنفة معه وأحس بها تتألم فقرر رأيه على أن يتحمل منها هذا الفيض

من العدوانية .. وكانا قد بلغا من البناء نصفه وهو مقدار ما يحتويهما متلاصقين لا يمكن للواحد

منهما أن يحرك يديه إلا بعناء فوقف أمامها هاتفا

– هذا بيتك يا أنستي

– وأين نضع أرجلنا ؟

– في الخارج.

وتفطن إلى أن الوقت نهاية شتاء وسارة مريضة فقرر

– سنزيده طولا في المرة القادمة.

– والسقف ؟ أنسيت السقف ؟

– لا أبداً .. إنما ليس معنا الآن ما يمكن أن يقوم مقام السقف ..ماذا تقترحين ؟

– صفيحة من القصدير تكفي ..ولكنه لن يكون في الإمكان أن يتحرك الإنسان بسهولة.

– إنه بيت فقراء يا أنستي ..

واحتضنها بنهم صبياني.

– يا لك من سادية ..ألا تجدين لذة في غير السخرية مني؟

– لأنك مثال فريد للسخرية

من عادات السكان إذا دخل الربيع أن يخرجوا في يوم معلوم من الأسبوع إلى الحقل المجاور للمزرعة ..وهي عادة متمكنة لأنها تمكن النساء والفتيات من التعارف ..ولا يتخلف الشبان عن المشاركة في هذه النزهة المشائية لأنها تخول لهم بدورهم اكتشاف الجميلات في الحي ومحاولة مغازلتهم فتتكون قرب المزرعة حلقات من النساء في جهة وأخرى من الشباب في جهة أخرى وسط أرض اخضرت نتيجة الأمطار الدورية فاختلط فيها الحمض بأنواع من الأزهار الوحشية .. وسرعان ما يتخلص الناس من النباتات الشوكية تتخلل هذا الخلاء .

وترتدي النساء لهذه الأيام أحسن الثياب كما تتأق الفتيات المتعطشات لعريس ..والمراهقون من الشبان يطوفون بين الحلقات النسائية ذهابا وإيابا تتبعهم نظرات الأمهات الحذرات. ورغم المراقبة فأكثر العلاقات العاطفية تربط أثناء مثل هذه الخرجات.

لاشيء ينم عن أي نوع من الاختلاط ومع ذلك فكل فتاة تركز اهتمامها على حلقة معينة من الحلقات الرجالية المتناثرة، حلقة شفروت، حلقة حمادي، ..وأحدث مرور (صلاح) ابن القهوجي رفقة زوجته الألمانية اهتماما عاما : النساء تتهامسن والشبان يهزون المرأة عند مرورها ويحطونها في وقاحة , كان صلاح في الثلاثين ، عريض المنكبين، يعرفه كل شبان الحي لاتصاله قبل هجرته إلى ألمانيا بفريقهم الرياضي ,كان ينظر إلى الجالسين من عل ويطوف بعينه بحثا عن مكان خال, وكان من حين لآخر يحيي أحد الجالسين من بعيد ويواصل السير وهو يحدث المرأة ويشير بكنتي يديه إلى المناطق المحيطة بطريقة الدليل السياحي بينما تتبع المرأة إشاراته في اهتمام كبير, كان يقرأ ما يدور في رؤوس القوم فهو منهم مما يزيد استعلاء على استعلاء : من بين هؤلاء النساء تعادل

امراته الشقراء جمالا وصحة ؟ صحة خاصة ؟ إن أصلها يشع على حقارته الاجتماعية الأولى التي لم ينسها الناس ضياء .ومر بجانب شفروت الكبير وبعض العمال فحول وجهه وهو يتظاهر بسؤال زوجته فتمتم شفروت الكبير في حقد:

— عجباً لابن القهواجي !..عثرت رجله ببغي في إحدى دور البغاء ففقد ذاكرته !..

— خلنا نتفرج ..هذه الأفخاذ..!

— التغذية يا سيد ..الجمال تغذية ..لكن مالك وهذا ؟ أمام أمثالك كل نساء الحي الميتات ذوات الوجوه المصفرة ..

— يا لك من معقد.. !

فابتسم شفروت الكبير وقد عاد إليه هدوؤه

— ها أنت بدأت تفهم ..يا لها من سبة ..نعم أنا معقد وأكثر مما تتصور ..إن عقدي تفوق جسمي وزنا ..وهذا بالميزان القديم ..انظر إليه الآن كيف يحتفي بحمادي ..أتدري لماذا ؟ لأنه ببساطة لا يأمن أن يرتمي عليها فيقبلها عنوة ..هيا فلنقم ..لنذهب بعيداً عن هذا المكان ..

— كل هذا من أجل صلاح ؟

— نعم، ذبابة وقعت في صحن قدر للطعام ..

وبدؤوا يمرون بحلقات النساء متجهين نحو المزرعة .لم ينطق شفروت الصغير طول الوقت بكلمة , لقد لاحظ أن صديقه منذ بدأ العمل في المصنع بقي مدة متفانلاً ثم تدهورت حالته النفسية وعاد إلى السكر المميت كل ليلة وكلما لم يذهب إلى نادي أمين وكأنه تبدى له الوهم الذي ألم به ..لقد أصبح يكفي أن تعضه بعوضة ليلعن العالم , وتضاعفت شراسته اللفظية منذ بدأ يطالع كتب أنجلس وماركس ..وغمز أحد العمال شفروت الكبير وهم يمرون بجانب زوجة المؤدب وابنته فعلق:

– لاشك أن بوسن الحقير لا يعرف أنها هنا ,, ياالاهي ..كيف يمكن للمؤدب المسكين أن يتصل

بهذا الفيل ؟

– يرتقي على سلم ..

وانفجر العمال ضاحكين

– ورغم ذلك فسعاد من أجمل فتيات الحي ..

– اخطبها أيها المكبوت ..

– من قال لك إنني بحاجة إلى زوجة ؟ كل ما أحتاجه امرأة لمدة ربع ساعة ..

– منذ عام كانت تبحث عن زوج يملك سيارة فخمة وفيلا، رجل ينسخ صورة أبيها..

– وبعد ذلك لم يقبل حتى حمادي أن يتزوجها ..

– هكذا تبدآن ..

– وهكذا تنتهين ..

– بدأنا نتفلسف.

– إن الألم في هذا الحي يصيح يا بابا يا أمي ..لست بحاجة للحفر عنه ..إنه ينبع كالذهب الأسود

في ليبيا ..

– آه لو كانت لنا ثروة ليبيا .. !

– وما ينفع ؟ سيثري صاحب المصنع أكثر وتفقر أنت أكثر ..

– كيف هذا ؟

– بورجوازية صغيرة جائعة شديدة النهم قصيرة النظر وصلت إلى الحكم ، فماذا يمكن أن تنتظر

منها وجدت آبارا أم لم تجد ؟

— أنت يا شفروت متطرف منذ بدأت تقرأ هذه الكتب ..

— هل أنت مستعد لإقناعي كما أنا مستعد ؟

— لا ليست لي ثقافتك ..

— مهلا ..مهلا ..لو كنت مثقفا لما كنت أهذي على هامش الأحداث أتحدث عن صلاح وبغيه ..ولو

بحثتم لوجدتم أن الذين يتحدثون عن موارد البلاد الضعيفة هم بالذات أولئك الذين لا يظهر عليهم

أنهم تأثروا في معيشتهم بهذا الضعف ..

وصمت برهة

— لو كانوا أذكاء على الأقل ..هم لا يملكون من السياسة إلا صفة النهب والسلب ..السياسة شيء

عسير وهم أقسموا ألا يفيقوا من غلطاتهم إلا بعد فوات الأوان ..السياسة نظام وسياستهم ارتجال ،

لم لا يكون شفروت وغيره حيوانات مخبريه تجري عليها التجارب ؟ لقد قرأت في كتاب أعطانيه

أمين أن القائد المتخلف إذا ما عجز عن إيجاد آفاق جديدة للشعب حول موضوع الحديث نحو

الماضي : عشرون سنة كفاحا ، ثلاثون ، أربعون ..وتتمو السنون بعدد الأيام ، يا لهذا العالم السابع

كيف تسوده الشعوذة !!..

ونبههم شفروت الصغير إلى أنهم قد توغلوا في المزرعة فتوقفوا برهة ثم قال شفروت الكبير وهو

يشعل سيجارة ويتجه نحو الجذع النخر

— ليذهب الكابتان ك. إلى الجحيم ..هذا الرجل صورة للمستعمر القديم ..مجنون ..إن الحرب قد

انتهت منذ ربع قرن ومع ذلك لا يتحدث إلا عن المجد ..وأبي مجد ؟ مجد فرنسا في (ديان بيان فو)

،،مجد فرنسا ومبادئ الثورة الفرنسية يوم لم يبق في فرنسا نفسها من يذكر هذه المبادئ من دون

ابتسام ..ويتحدثون هنا دائما عن الاستقلال !!..

وكوتوا من جديد حلقة فأخرج شفروت كتابا من جيبه الكبير تصقحه بعض الوقت قبل أن يتمتم

– لقد وصلنا إلى الصفحة العشرين ..وصلنا حيث يقول ماركس إن نساء العمال وبناتهم كن دائما

تحت طلب المستغلين ..هل يذكركم هذا القول بقولة أخرى رأيناها ؟

– ؟

– القولة التي يقول فيها إن العمال الفرنسيين كانوا يسمون الساعات التي تمارس فيها زوجاتهم

البغاء مقابل بعض المال بساعات العمل الإضافية ..

رجع شفروت الكبير إلى الحي منذ الرابعة مساء يوم 5 جوان 1967, كان العرق يتصيب من جبينه واختفى من حركاته التردد المعهود,, واندفع إلى السوق بين الجماهير انقسمت حلقات تزداد تضخما في كل لحظة حول أجهزة الراديو والترانزيستور,, لم يتخلف عن السوق أحد هذا المساء , حتى(موشي) فضل أن يغلق محله مند الصباح,, من يدري؟

واقترب شيخ الحي من شفروت الكبير

— ماذا يحدث في العاصمة ؟

— لا أدري

وتسلل بين جماعة أحاطت بجهاز راديو وقد ملكها صوت المذيع الهائج(القاهرة دخان,, القاهرة تحترق ,,)

ورفع أحدهم رأسه فرأى شفروت الكبير

— ماذا يحدث في العاصمة ؟

— تونس تشتعل ,, آه ما أروع الدخان,, لقد أحسستني أحياء,, لأول مرة, المغازات

الضخمة,, السيارات الكبيرة,, الثروة المجمعلة لا أدري كيف,,

وتلملت الجماعة فعلا صوت (موشي) من وراء وهو يتدخل ليوقف مدا عاطفيا بدأ يحيا

— هذا ما أعجبك ؟ إن كل هذا سوف يدفع من خزينة الدولة

— اسكت أنت ,, أنت لم تنس التقاليد اليهودية,, لا يهم عندك غير المال, إن الدخان عندي رمز لقطع

الصلة بالماضي,, بالهدوء,, بالموت,, لكنني لم أكمل, ليس في ما حرق شيء يملكه البائسون,,

وتدخل (موشي) من جديد

— ولو ،،إن هذا الذي تدعو إليه لا يبرره شيء،،إنه مجرد تخريب،،

وقاطعته أصوات متداخلة

— اسكت .

— أغرب عن وجهي ..

— يا موشي من دعاك إلى الحديث ؟

وانطلق شفروت من عقاله وهو يصيح في الجماعة

— كل اليهود سواء ،،أنا أقول لكم، صدقوني،ليس يوجد صهيوني وغير صهيوني،كلهم سواء،،،

فكّر موشي أنّ العقل شيء وانفجار حقد متأصل شيء آخر فحاول الإفلات بعيدا ولكنه وجد نفسه

وجها لوجه أمام صالح وجماعة من الشبان سدت عليه الطريق

— إلى أين يا موشي ؟

وحاول الرجل أن يتخلص من الأيدي الممتدة وبدأ يصيح

— يا سيدي الشيخ، يا سيدي الشيخ

وسقط على الأرض تحت ضربات الجماعة وهو يراها قبل لحظات من إغمائه تتحرك في اتجاه محله

وسمع لآخر مرة شفروت يصيح

— كلهم سواء ،،من دون فلسفة،،من دون تقديمية فارغة،،

ولم تمر خمس دقائق حتى كانت الجماعة قد اجتاحت حانوت (موشي)،كسروا القفل وتفرقوا

بين رفوف الجعة والخمر، وتجمع خارج المحل جمع غفير من الأطفال يتصايحون وخرج أول

المهاجمين دامي الرجلين في إحدى يديه زجاجة (بـوخا) نصف فارغة وفي الأخرى حزمة من

زجاجات الخمر وهو يترنح

— على نخب موشي ،،فلسطين ،،ا



وتفطن بعد مدة إلى أن لا أحد يودّ مشاطرته الغنيمة

— ماذا بكم تنظرون إلى هكذا ؟ هل ( غاظكم ) موشي؟ كلهم سواء،،

وجذب حمادي من قميصه وهو يتقبل بغيظ عدم اهتمامه هذه المرة

— ماذا دهاك ؟ أنت أيضا حمادي ؟ لقد فسدت منذ مدة ،، أصبحت قديسا،،

— اذهب فبع نفسك

فترك حمادي وهو يترنح وقال بسخرية

— أكون كل هذا من تأثير سارة ؟

— يا وغد .

وشده حمادي من ثيابه وهو يهزه ثم لكمه فأطاح به على الأرض

— يا موبون ..

وهو يرفسه بغيظ

— يا لقيط

وأحس حمادي بيد تجذبه بعيدا عن الشاب الممدد ورأى شفروت الكبير ينظر إليه في استغراب

— تود حماية موشي أم ماذا ؟

— اسمع يا شفروت، لا أريد أن تفسد الأمور بيننا من جديد ،، هيا،، كفى هكذا ،،

وابتعد عن شفروت الكبير الحائر بسرعة وكأن أمرا طارئا دعاه وبقي الآخر ينظر إليه إلى أن رآه

يتحدث مع شفروت الصغير فلحق به مهرولا

— تتحدثان عني ؟

— نعم ، وأقول لك انك هذه المرة قد أخطأت قصدك،، (موشي) واحد منا،،

— أنت لا تفهم السياسة يا شفروت

قالها من دون اقتناع لأنه يعرف أن شفروت الصغير لن يدافع عن نفسه في هذه الأمور

— نعم ,أنا لا أفهم من السياسة شيئاً ولكنني مع ذلك أقول لك أنك قد أخطأت القصد هذه المرة,,

— في الحياة يجب أن ننتمي أو نموت ,, أن ننتمي إلى أي شيء,,ولقد انتميت إلى نفسك يا شفروت الصغير,,إلى نفسك فقط,,

فقاطعه شفروت الصغير بغیظ لأول مرة

— دعني من هذا الكلام يا شفروت ,, أنا أعرفك,,أنا أحسك,, أنت تعاني الحياة,,وما أغباك من رجل تطلب الأمل بالسكر ,,هذا هو مصدر فلسفتك ,,أنت تعاني الحياة ومع ذلك تكره الدواء ، الموت،  
اللاشيء

ولم يرد شفروت الكبير ولم يحاول أن ينظر إليه فواصل الآخر

— لا فائدة من الغضب ,,الغضب لا يجدي,,أنت تعرف أنني أحبك,,

وصمت لحظة وجيزة

— وتعرف كذلك أن موشي أهدنا ,,أننا متشابهون,,

— فلنضع حدًا لهذا الحديث

— كما تريد.

وحاول شفروت الصغير أن يقرأ في عيني الآخر ما يظن به

— لقد حيرك موقفي هذا,,أنا لست بمخطئ

— ؟

— إتني أعرف إلى أي سبب سترجع موقفي لقد سمعت أحدهم يتهم حمادي مند قليل بمثل هذه

الأشياء



خرج شفروت الصغير من الخامسة مساء يحاول من جديد أن يرى سارة..كان مند يومين يصارع فكرة غلبت على تفكيره: أيمن أن تبلغ الشراسسة بسارة حد إرادة تعذيبه بهذه الطريقة؟

أيمن أن يصل بها الألم حد إرادة الإيلام ؟ فكّر أول اليومين أن معنوياته تفرض عليه أن يتظاهر بعدم الاهتمام فيحبط برنامج سارة . وفي اليوم الثاني أحس بضعف يعرقل مواصلة فكرته ثم وصل في تفكيره إلى أن معنوياته هذه إنما هي مجرد كبرياء فارغة.. ومع الرابعة مساء تسربت إلى خياله فجأة صورة سارة مريضة لا تقوى على السير والقفز بين الصخور فلعن نفسه ( سارة مريضة وأنا هنا أغازل كبرياء بثمان مليم مثقوب؟...)أليست العلاقة بسارة فوق كل شيء ؟ فوق النجاح وفوق الفشل في الحياة اليومية. لقد رفض قبل أكثر من ثلاثة شهور الحضور في حفل أقامه أبوه بمناسبة نجاحه في البكالوريا واستدعى إليه عددا محدودا من السكان المعارف الجدد بسبب غياب سارة.. ولم يفهم ادك هل أن الكابتان ك. منعها من الحضور أم أنها رغبت في تعذيبه..إن أغرب ما في علاقتهما أنها تنمو قوة وتأصلا بالرغم مما يشوبها من روح عدوانية تسيطر على نفس الفتاة المتوحشة

كانت الطريق فارغة لتوالي نزول المطر منذ الصباح فقطع المسافة بين الدار والحانة جريا وتوقف عند الصبي بائع السجائر

— خمسة (كريستال) ووقيدة..

ناوله الصبي السجائر وهو ينظر إليه من تحت فبقي مدة تحت الحائط ينتظر أن يهدأ المطر،

وكان الطفل وجد الوقت الكافي للاطمئنان إليه فقال وهو يشعل عود ثقاب يقدمه له

– لقد سألت عنك شفروت الكبير منذ ربع ساعة ..

– وماذا قلت له ؟

– قلت له إنك لم تخرج منذ يومين ..

فحملك فيه شفروت الصغير لحظة وهو يغتصب ابتسامه

– ومن أين لك أنني لم أخرج منذ يومين ؟

– هذا بسيط .. لو خرجت في النهار لرأيتك

– ومن قال أنني لم أخرج في الليل ؟

– هذا مستحيل .. مستحيل أن يخرج الإنسان في ليلة كليله أمس . لقد سقطت دار (أمك صالحة)

وانشق الحانوت الذي يسكنه شفروت الكبير ..

فارتسمت على ثغر شفروت الصغير ابتسامه غامضة

( الأغبياء .. الأغبياء .. لولا غياب سارة .. لولا أن ذلك خارج عن إرادتي لخرجت في

الطوفان )

– إن حمادي أيضا يقول إنك لم تخرج

– حمادي أيضا ... ومن أين لك هذا ؟

– سمعته يحدث شفروت الكبير

(صحيح أن علاقة جديدة بدأت تربط حمادي بشفروت الكبير منذ أحداث الصيف

الماضي .. ليست علاقة متينة ، ولكنها علاقة غير عدائية كما كان ذلك في الماضي ..)

وأحس بقهر مؤلم من فكرة اهتمام الناس به .. هو لا يقبل على غير مضمض اهتمام شفروت بزياراته

الليلية خوفا عليه والآن عم هذا الاهتمام .. واندفع في الطريق الموحلة والمطر على أشده تتبعه

عينا حمادي من الحانوة .. ولو التفت لرأى شابا مهتما بكل حركة تصدر عنه ينظر إليه من

دون حقد ، بشيء من الوجوم

لم يعترضه بعد ذلك أحد إلى أن اقترب من المزرعة فظهرت أمامه  
الراعية (مباركة) تسوق عددا من النعاج وقد غسلها المطر فأخرجته من تخيلاته بنظرتها  
الساذجة وهي تقف في طريقه لتجبره على التوقف

— هيا، ابتعدي.. كفاك اغتسالا هذا اليوم.. اذهبي فانزعي هذه الثياب..

فوضعت الفتاة يديها على خصرها وهي تتصنع انتهاره

— وما يهمك أنت ؟

— حسنا.. أنا مخطئ.. تصبحين على خير..

— شفروت الصغير، أنا ألعب معك

وأضافت بخبت ظاهر وهي تجري لترجع نعجة متخلفة

— هلا عدت إلى الحي، ليس يوجد على السطح غير الصخور الباردة والأشجار المبللة حتى الجذور

وقف في مكانه وقد غلبه الذهول ثم واجهها وقد تبدلت لهجته

— ألم تريها اليوم ؟

— لن أقول لك.

فاغتصب ابتساما جديدة

— أيتها اللصة... هذه خمسون مليما... ولكن هذه آخر مرة

فجرت نحوه وأخذت القطعة النقدية.. ولما رأت أنه يغالب ذهولا قويا من دون جدوى همهمت

— شفروت ا... أمن أجل هذه القطعة تحزن ؟ أنت تعرف أنني لم أطلب منك شيئا أبدا.. أنت

الذي عودتني على هذا..

— ليس هذا.. أفكر في سارة

— آه..

— ألم تريها اليوم ؟

- ولا أمس.. هذا غريب.. هي لا تتخلف عن الجبل أبدا.. لم تتخلف عن الجبل منذ سنين.. أنا أعرفها.

كان ينتظر مثل هذا الكلام ولكنه أحس له وقعا خاصا. وحصل له يقين أن قد حدث لسارة شيء.. إنها عاجزة عن البقاء وحيدة في البناية لمجرد إرادة العبث، وهي أعجز عن التخلف عن الخروج إلى المزرعة والجبل..

وانتهر الفتاة الصغيرة

- لا تنظري إلي هكذا.. ما الذي تجدينه في؟

- إنك ترتعش

- تلهي بنعاجك

وابتعد عنها مسرعا في اتجاه المزرعة . الآن فقد الإحساس بالمطر بل انه ليجد له وقعا حزينا تمنى لو تضاعف فغطى الأصوات المتضاربة في رأسه تتلاقى في فوضى تهد الأعصاب.. وانتبه لتوغله في المزرعة وتحرك نباح الكلاب خلف الأشجار الحافة بالبناية فطاف بعينيه في الخلاء حتى وقعت على الجذع الخاوي خلفه وراءه حيث جلس في أول ليلة يلتقي فيها بسارة فتراجع نحوه وأشعل سيجارة وقد تعلق بصره بغرفتها.. لم يعد يفكر في غير نباح الكلاب. وان خطرت بباله فكرة كتبها.. ما فائدة التكهانات حول حالة سارة وهي على بعد مائتي متر..؟ وانغرزت في عروق رأسه فكرة طارئة ( لو مددت اليك يدي للمستك.. ولو نظرت إليك لرأيتك.. الأرض والسماء تبعثان في أنفي رائحة شعرك المبلل)

وتعلق نظره بالكلب الكبير يقفز بين الأعشاب والوحل فانتظره حتى وصل إليه وجثا بجانبه ومدّ يده إلى عنقه يمررها على شعره الغزير المبلل

- حتى أنت بقيت وحيدا يا بوبي..

ورآه يضطرب بين يديه وقد أقلقه دخان السيجارة فرمى بها بعيدا

— أنت حزين يا بوبي

وأخذه بجهد ووضعه في حجره

— أين سارة؟ خلف الضوء الشاحب في النافذة؟ أرايتها؟ لا.. لم ترها لا اليوم ولا أمس؟

وهو يبتسم بغباء

— إنك حزين.. كانت تضربك.. أنت نسيت هذا عندما غابت.. ماذا؟ أنت لم تنس شيئا؟ حتى أنك أدميت

معصمها وساقها عشرات المرات؟ إنها تحبك يا بوبي، لأنك كلب رفيع.. لست ككلاب الحي..

وإزداد انغراز الفكرة الطارئة في عروق رأسه

لو دعوتك لأجبتني.. ولو مشيت إليك.. اللعنة علي.. في حين سارة مريضة.. )

ووضع بوبي جانبا وهو ينتصب

— لو مشيت إليك... يجب أن أمشي إليك.. أن أحمل إليك رائحة الأرض حتى سريرك..

وسارا معا نحو البناية

— لا يجب أن تقول للكابتن ك. إنني أبحث عن سارة.. لقد خاف المطر هذه الليلة.. بعث بك وحدك..

انه لا يحبك.. لا يحب سارة.. لا يحب أحدا..

وبلغا البناية دون أن يعترضهما الكابتن ك. ولا أي كلب آخر..

كان المطر قد فرض على المكان صمتا عميقا لا يكسره غير وقع خطوات شفروت الصغير

ينتزعها من الوحل اللزج أو ترتطم ببرك الماء الصغيرة. وعندما وقف حذو الأشجار تحت النافذة

عاد الصمت صقيلا كالزجاج وارتفع صوته

— سارة.. سارة

مبحوحا لا صدى يردده



— سارة ، أنا شفروت

وتحسس شجرة سوقاء قريبة من النافذة فتساقط من الأوراق مطر ثقيل القطرات واستمات شفروت الصغير في الوصول إلى شرفتها

وعندما قارب النافذة ألقى نظرة على الأرض يحاول أن يتبين شبح بوبي في شبه الظلام، ثم مدّ عنقه نحو النافذة وتعلق بها في أمل.. ووجد نفسه إزاء سارة ممددة على السرير.. ومرت لحظات قبل.. أن تتخلص سارة من المفاجأة ثم جاء صوتها الضعيف ناهرا

— شفروت، لم جئت إلى هنا ؟

— سارة اا

وجلست على السرير وهي تحول نظرها عنه

— أسألك.. أريد جوابا.. من دون بكاء.. ماذا يهمك من أمري؟ لقد جئت لأنك تتخيلني أصبحت ملكا لك، لا يجب أن يفتكني منك أحد.. حتى الموت.. اذن أقول لك انك مخطئ..

وسعلت

— لأنني كنت أتابع عبثك من الأول كما أتابع حركات الأرناب في المزرعة تظن أنني أحبك.. اها..ها.. اني أحب حمادي..

وهي تمسح العرق المتصبب على جبينها في هذا البرد

— والآن أقول لك أنت إنسان مريض.. لقد أحببتني فقط لأنك تخيلت من أول يوم أنني أحتقرك.. ولقد كنت أحتقرك حقا.. لا أحب من يطمح إلى امتلاكي.. لست ملكا لأحد..

— سارة، أنت ..

ولم يستطع أن يتم كلامه بل أسرع إلى النافذة واختفى في لحظات... وانطلقت سارة عندها في بكاء عنيف .

(لن أغفر لك الحب القديم ، القديم من ألف سنة.. لقد لوثنني.. ما اليوم إلا يوم اللعنة... لقد أردتني ربا فأبيت، وأردتني أنت فأبيت ، وأردتني أنا فكان البغاء أيتها الضحية اللعينة.. إن التصنيف الإقطاعي سيبقى ما بقي الإنسان، فأذهب إلى الشيطان.. لقد لفظتني اللعنة.. حتى اللعنة لفظتني ياشفروت الصغير اللعين ولسوف تبحث عني بعد الآن وراء الثلوج...)

حمادي لا ينبس بحرف يكسر به صمت روح سارة الدائبة وسط هذا الجو المريع من البرد يصفع وجهيهما على الشاطئ وقد خرجا على مرأى من كل الناس. يجب أن يصل خبر خروجهما معا إلى أذن شفروت الصغير الذي لم يعد يظهر في الحي أو المزرعة البتة..

وتمتم حمادي في بداية أمل جديد

- ما كان له..

- اصمت أنت أيها القدر.. ليس شفروت الصغير ما يمكن أن تظن به..

وتراجعت وقد تذكرت موقفها منذ لحظات وهي تقول بين نوبتين من السعال

- ما كان له ماذا ؟

- ؟

(أي شيء أروع من الألم في حياة شابة واعية تنطفئ؟.. أي شيء أروع من

الانتحار الايجابي في حي متدهور كهذا؟.. لن نفكر الحياة أبدا إلا على

أساس مدى تضحية الناس الشظايا... المرض. اللذة. الجنون. خطيئة عصر

الرقيق والعالم السابع.. لك كل شيء ياشفروت الصغير.. ولقد حطمت فيك

كل شيء، نفسي..)

والصخور تتوالي معالم في حياة مداها الأبعد نصف فرسخ يفصل الحي  
عن الشاطئ من وراء الجبل والصخور الملوثة بالعلق ماتت رائحته المنتنة بفعل  
البرد يربط السطح بالأعماق في قلب الأنسة الصغيرة...

وعاودتها شراستها القديمة

- إننا وحيدان الآن ، حمادي..لم لا تستغل هذا الموقف؟

فغض هو من بصره

- سأوصلك إلى البناية ثم أعود..

لن توصلني إلى أي مكان..خل عنك هذا الظرف فقد جاء متأخرا... )

في الأعماق لن يتلو الرب مدحته في خلق الكون بصوت المعزين في  
الأرض، العلق وحده هو الرب، يعينه الجبل في صبغ الجسد الميت بلون  
السحاب الأبيض لن يتصيب مطرا من جبين هذه الحياة الذابلة.. لم يعتني  
أحد فأوجد ولن يعينني أحد فأموت. داك مصدر قوتي..حتى شفروت  
الصغير..أنا ملك الوعي لحظة يشرف على الجنون.الوعي الخاطئ، أصلا.  
أي وعي..المرض واللذة والموت.هذه الوحدة المقدسة يحولها وجود الرب العلق  
يقينا...)

واندفعت نحو العرض والشباب الغبي لا يفهم شيئا..وعندما بدأ يفهم ارتطم  
جسد سارة بالدفعة الأولى من الموج البارد يغمرها في حب خيالي  
لن تبرره لذة الألم وحدها.. ولم يردد الأفق صدى صوته المبحوح  
يطلب إليها العودة ولا صوت ارتمائيه بثيابه محاولا اللحاق بها..كل هذا لم  
يردده الأفق في هذه اللحظة...

وأفـاق على أصـوات أناس يحيطون به على الشاطئ

لقد قتل الرجل سارة

وأحس بأعين تنغرز في جسده وهو مغرق رأسه في الرمل البارد لا

يفقه شيئا

لا..انه البحر قتل سارة..

وأوغل في غرز أصابعه المتجمدة في الرمل.

للموت هنا لذة لحظة النشوة القصوى والبرد ونداء المجهول الحجري الثلجي:)

تذهب إلى الكابتان ك. وتقول له انك قتلت سارة، فهمت أم لم تفهم، ألم تقتل

الآنسة الصغيرة؟ أنت أو البحر، هذا شيء واحد. المؤكد أنه ليس

ليد الرب دخل في هذه الفعلة.. انتحار؟ لا. ليس الحدث انتحارا..

انه تحقيق رغبة التلوث بالعلق الحي الرائع. لا تهتم النتيجة.. عندما

يسمع الحي طلقات الرصاص سيتخيل الناس أن الكابتان ك. قد أرداك قتيلا

وستحقق بذلك ديننا لسارة عليك.. لا تخف حمادي، بل عليك أن

تخاف، لأن الخوف يزيد المأساة لونا أجمل وأجمل. يجب على من في

الحي أن يعرفوا الخوف الرائع.. من اللاشيء...)

وعندما سمع شفروت الصغير طلقات في الظلام اغتصب ابتسامة لقيطة وهو

يختلس النظر إلى الأجزاء البادية من جسد البناية الواقعة على بعد ربع فرسخ.. لا.. لا

بد لسارة من ثمن. أن يكون حمادي أو غيره، هذا لا يهم..

وتلملم في جلسته على الجذع النخر وهو يتحسس جيوب ممطره

ويشد معولا إلى صدره وتحرك نحو الظلام.. حتى الخفافيش هاجرت

بعيدا ولم يبق في هذه الأرض الحجرة غير المرتفعات اندال بطنها نحو الوحل..

حتى الكلاب ماتت أصواتها وانعدمت حركاتها لحراسة المزرعة العراء. وضرب

الأرض بمعوله: (ليس في الحي أحد يصلح للحياة كما يجب أن

تكون... المسخ). وأسند ظهره إلى شجرة: (ليس في الحي أحد يصلح للموت كما

يجب أن تكون..) وضرب رأسه على الجذع: (لو مددت يدي إليك للمستك.. ولو نظرت

لرأيتك ياسارة..)وانتزع رجله من الوحل فغاصت أكثر ووقف إزاء قبر سارة صامتاً ثم رفع وجهه إلى المطر: ( لا أفق بعد اليوم... ) وانهال على التراب حفراً وجثاً يبحث عن سارة في الماء والتراب وتلوثت يداه فمسح وجهه بجسد سارة وكلم الموت

أنت هنا ياسارة ؟

فجاءه صوت أجس ساخر

- هي ليست هنا يا شفروت

فانتفض ونظر وراعه إلى الجندي القديم يصوب نحوه ببندقية.

- الكابتان ك,؟ عليك العنة...

وانهال من جديد على القبر ينبشه

- كفى..كفى..أنت تبحث عن ماذا ؟

وأحس بالبندقية تمس رقبتة فرمى بالمعول واكتفى بالنظر إلى الرجل

المسلح في شبه غياب

- لن تعود سارة..لقد قتلتموها..سارة لن تعود..

ولم ينطق شفروت الصغير بكلمة.كان دماغه ينزف دماً

- جاء قبلك حمادي...كانت فرصة لي لمعرفة نماذج من هؤلاء الذين يسكنون

الحي..لقد اكتفيت بإطلاق الرصاص في الهواء..قال انك بعثت به. كنت تريد

أن أقتله..لقد فهمت هذا..لم أرد أن ألوث اسم سارة..

- أيها القدر

وحول نظره عن عيني الكابتان ك. الحقودتين

- لم يقتل سارة غيرك..أنت وأبوك وأختك العجوز..الحقد الذي يوحد بين سكان

البنية هو الذي قتل سارة..الظلام..

فاقتبلت كلامه فهقهة مجنونة وشده الكابتان ك.من عنقه

- وتتفلسف أيها الكلب..ا

- نحن كلاب..قلها..نعم نحن كلاب أيها الكلب الحقير..ولكن سأقول لك شيئا لن

تنساه: إن فرنسا ماتت منذ ربع قرن ومات معها المتمعشون من الدكریات

- فهمت..إشاعات أهل الحي؟ هؤلاء الدين تتبرز نساؤهم في الخلاء

عندما ينزل الظلام..إنني لا أحب غير الأقوى أيها الغبي..لا أحب

الضعفاء أيما كانوا.. أنالست مسيحيا أيها الضعيف..وسترى ذلك..

لست مسيحيا فلا أحقد..أنا إنسان حقيقي لا يمكن لغير الحق أن يمنحني

مبررا للحياة..سم هذا ما شئت.. مذهب القوة أو أي شيء آخر..وليست هذه

جاذبية التلمود..أنا يهودي من أمي..يهودي سيء..وأعرف أن ليس هناك

في دولة إسرائيل أحد يمكن أن يقبلني لأنني تخلصت من جاذبية التلمود..كذلك لست عنصريا

لأن مفهوم العنصر يرجع إلى مفهوم البغاء عند الشعوب..إنما..إنما أكره أن

تكتشف كلابي في المزرعة في كل خرجة نساء يخرجن للتبرز في

الليل..أكره أن تكتشف كلابي في كل خرجة جثة صغير بين الصخور..أكره هذا

النوع من البشر..

- سارة كانت تحبهم

وانتقض الكابتان ك. وعاد يخنقه كأعنف ما يكون

- أيها الوغد..وما زلت تلوث اسم سارة..ا

والتحم الرجلان في صراع حيواني: شفروت الصغير يحاول تخليص رقبتيه

والآخر يخنقه وينهال عليه لكما وتدرجا على قبر سارة تحيط

بهما الكلاب الواجمة, وأخيرا وقف الكابتان ك. ينظر إلى شفروت الصغير  
الممدد على الأرض ثم حمل الجسد الواهي على كتفه واتجه متعثرا في  
برك الماء نحو البناية الصامتة. وأحدث الباب الكبير وهو يدفعه صريرا حادا.  
- يا امرأة ..يا امرأة..

ووضع الجسد على مصطبة قرب البئر ثم حول نظره نحو مسكن شبه متهدم  
يقع في عزلة عن البناية  
- ناديتني ؟

- وهل توجد ألف امرأة هنا ؟ أين أبوك ؟

- لا أدري

- قلت لك أين هو ..

- لقد نزل نحو الشاطئ

- لماذا ؟

- لست أدري ..

- أيتها الكلبة..لست تدريين..

وافتك من يد الأنسة س. القنديل وصوبه نحو وجه شفروت الصغير.

- من هذا ؟

- هذا هو القدر الذي قتل أختك

- ؟

- سوف يبقى هنا..لقد أغمي عليه..حاول أن يقلق روح سارة وهي في

القبر..حذار أن يتمكن أبوك من اكتشاف وجوده هنا..حذار..

واقتربت المرأة من شفروت الصغير تتأمل وجهه الملطخ بالدم فنهرها



الكابتان ك.

- سوف يسجن في حجرة لا تطل على المزرعة..لا تعطه من الطعام أكثر

مما يمنعه من الموت جوعا..حذار..

وانساب في الظلام وهو يعربرد

- الكلاب.. القذارة..

فتح شفروت الصغير عينيه في الظلام..البرد ينخر عظامه.. وتحسس فراشه فخمن أنه ديوان كبير..أين هو ؟ ماذا يفعل في هذا المكان؟ كيف وجد في هذه الغرفة الباردة ؟ انه لم يعد يذكر شيئاً..

وتكسر غصن فحول نظره في اتجاه الصوت وصرخ في رعب في حين تعاقبت على سمعه أصوات أرجل تصطدم بالأرض وتبتعد عن النافذة.. ودخلت الأنسة س, بعد لحظات بقتديها خافت الضوء وبقيت تنظر إليه في استغراب

– ما الذي يحدث لك ؟ توقظني في الليل من دون داع ؟

فأشار إلى النافذة ويداه ترتعشان ولم ينطق بشيء

– هذه تخيلات..أنت تعبـان.. يجب أن تنام..

وتراجعت نحو الباب فانتصب ليحتمي بها ولكنه سقط على الأرض

– سارة، لا تتركيني ..

– سارة ؟

وهو يحدق في النافذة برعب

– إنه الكابتان ك.

فقالت ببرود وهي تعينه على الاستلقاء

– هيا ..كف عن هذا الخيال.. تخاف في مثل هذه السن ؟ اتركني أنام.

ووصل سمعها وقع خطوات تقترب من الحجرة فوجهت الأنسة س. مصباحها نحو القادم وهي تسأل

– من ؟

- أنا .. لا تخافي..هل رأيت ذلك العين؟

- لا..لم أره..لم جئت إلى هنا؟ لقد منعتني من السماح لك بالاقتراب من

شفروت الصغير

- القدر ..

وتقدم الأب في اتجاه شفروت الصغير وقد أخذ القنديل من يدها وركزه على

وجه المريض

- أنا على يقين أنه يحاول دفعه إلى الجنون..لا شك أن هذه أعمال الكابتن ك. أنا أعرفه..

وجلس بجانب شفروت الصغير يحاول إبعاد مخاوفه ثم طلب إلى الأنسة نس.

أن تتركهما وحيدين فرفضت بتصميم

- لو وجدك هنا لحدث شيء سيء.

- في غير صالحه

- هذا ما لا يمكن التكهن به.

- سأأخذه معي إلى البيت.

- لا أبدا.

فسر في أذنها كلمات وهو يدفعها نحو الباب

-سأذهب عنه كل هذه المخاوف..معي الليلة سيد خارق للعادة..

وقاده من يده والآخر يتبعه دون أن يعي شيئا

- معي الليلة امرأة جميلة..سترى..إنني أعرفك منذ مدة طويلة..من حديث سارة..كانت

لا تحب أحدا غيري في هذه البناية..

حتى إذا بلغا الباب ترك شفروت الصغير لحظات وخطا خطوات إلى الأمام يتأكد من خلو الطريق

— لا يجب أن تخاف الكابتان ك.

قال ذلك وكأنه يحاول إبعاد الخوف عن نفسه هو وبلغا حجرة خالية إلا من فراش واطئ  
وبعض الكراسي وطاولوة تكدست فوقها زجاجات جعة فارغة وملائنة.. وكل  
عتيقة بينما تكدست في ركن من البيت امرأة ما لم ترفع رأسها وهي تسمع  
خطوات القادمين.. وهتف الرجل العجوز وهو ينتقل إلى مداعتها

— هيا عائشة... أقدم لك شفروت الصغير..

وانتفضت المرأة وبقيت إزاء شفروت الصغير وقد احتبس عنها الكلام في حين كان هو ينظر إليها  
بعينين فارغتين من دون أن يبدو عليه أنه يذكر شيئاً. وفهمت المرأة العكس فانفجرت بالبكاء  
— لم تنظر إلي هكذا؟ ماذا تظنني؟ إنك في النهاية تشبههم. أتذكر تلك الليلة؟ الليلة التي

خرجت فيها من الدار؟ ماذا تظنني؟ لقد أحسست بعنف أنني أميل إليك ولكنك  
رددتني كما يرد سائل مقلق.. إلى من تريد أن أتجئ؟ إلى من؟ أجبني.. لا  
أقبل صمتك الآن... صمتك عجز.. أقسم أنه عجز ولا أخطئ.. تريد أن  
أعطي الخمار جسدي؟ لمن تريد؟ لشفروت الكبير؟ لمن؟ لرجال الحي؟ هؤلاء  
الدين صنعوا لي من جهلهم أسطورة من الطهر..؟

ووضعت رأسها بين يديها

— أنت شاب حالم.. أنت لا تفهم.. كان ذلك أقوى من إرادتي.. اللعنة علي..

وأفاقت على عينيه الفارغتين دائما فتراجعت نحو الأب وتشبثت بيد العجوز

— ما الذي حل بشفروت الصغير؟

— لا تخافي.. كأنه فقد ذاكرته

— إذن هو لم يذكرني؟

– لاشك في ذلك.

– أريد أن أعود إلى الدار.

– كيف ؟ هكذا ..

– لن أحتمل البقاء هنا لحظة أخرى

فاحتضنها العجوز وهو يدخل يده من فتحة في ثيابها إلى ثديها ويمرر يده الأخرى على فخذيها ثم

دفعها بلطف وهو يهتف بمرح

– هكذا أردت ...أذهبي إلى الجحيم..

وشيعها بعيدا عن البناية. وما كاد يهم بالرجوع حتى بلغه صراخ آت من بعيد يجمد الدم في العروق.

كانت الأنسة س. طويلة جدا يظهر طولها خاصة سروال " الترقال " الواقف الذي تلبسه.. الحائط ملوث دائما بعدد من اللوحات الغريبة الشكل، السريالية اللون.. وعلى الطاولة حيث تجلس في مواجهة شفروت الصغير مزهر مليء بالزهور الذابلة المسودة لم تعوض مند حمل إلى البناية.. وعلى المقاعد المغلفة هنا وهناك ألقيت اسطوانات ومعطف وعدد من الكتب لايملي برونتي وكافكا ودوستوفسكي بينما رصفت في نظام ينسخ هذا التوتر في الشقة على رف صغير كثير من الأحجار البحرية المختلفة الشكل. كان ضوء القنديل الكهربائي المنبعث من السقف لا يفي بحاجة الشقة الواسعة فاستقل كل شيء بظل طويل وأحدث خيط الدخان المنبعث من سيجارة الأنسة س. سحباً زرقاء تختلط بغبرة الغرفة وصمتها والأشكال الحية المتناسخة على الجدران والأرض.. كان شفروت الصغير ينظر إليها في صمت وهي تشعل السيجارة الجديدة من عقب السيجارة النافذة. وكانت هي تستكشف عينيه من وراء سحابة الدخان وقد ارتكزت بمرفقها على الطاولة.. كان تعباً لا يقوى على الحركة وكانت كل حواسه قد تركزت في عينيه فاكتفى بالنظر إليها. وسعلت المرأة فقال بتعب وهو يحول عنها عينيه

— لقد حذرتك ألف مرة من المشي حافية... وها أنت الآن تدخنين

فقامت من مكانها واتجهت تضع اسطوانة ثم عادت تنظر إليه من أثناء الدخان وهو لا يقوى على مواجهتها

— لقد تغيرت منذ زمن يا سارة..من قبل كنت تأخذين بخاطري

وبعد صمت

— أنت تريدين قتلي..

وانساب صوت المغني اليهودي التونسي وسط الضباب

إيه.. في البريمة

الأيام كيف الريح في البريمة

— أنت تريدين قتلي

إيه.. في البريمة

الأيام كيف الريح في البريمة

— أنت تريدين قتلي..تريدين قتلي..

وأجهش بالبكاء فغادر الطاولة واتجه نحو النافذة المفتوحة على الظلام. وأعقب قيامه وقت ما ثم

سمع خطواتها تتوقف وراءه وبلغه صوتها غريبا لم يعهده من قبل

— هل تبكي حقا؟ هيا..انظر إلي فأرى عينيك..

همهم

— كم تغيرت يا سارة..

فحالت بينه وبين الظلام وهي تقول ببرود

— كنت أظنك تمثل..

تأكدت من عينيه المحمرتين ورأت يديه ترتعشان فاكتفت بالقول

— أنت دائما ذلك الطفل الصغير..

وأضافت بعد لأي وهي تتأمله بإمعان

— غدا سأغيب عن البناية لمدة أسبوع..

فانتفض

— لا.. أبدا..أنا أمنعك..

وأخذ يدها

— لمن تتركيني يا سارة ؟

وتركها بسرعة وهو يهمهم من جديد

— يدك باردة ..

إيه ..في البريمة

الأيام كيف الريح في البريمة

عادت تجلس إلى الورد الذابل وتسرب الظلام من زجاج النافذة إلى خياله فرأى سارة تقف أمامه وهي تداعب بوبي والكابتان ك, يصيح من بعيد أين أنت أيتها اللعينة..ألا يكفي أن تطلقى الكلاب؟ وآها بعد ذلك في بيتهما الصغير وأحسها في كل خلية من خلايا جسده... وعندما بلغه صوت الأنسة س. يطلب منه التحول عن النافذة أحس برعشة باردة وصاح فيها كالمجنون

— لا...أنت لست سارة..

— هيا.. سأقودك إلى فراشك...انه التعب أثر فيك..

— ومع ذلك أعرف الآن أنك لست سارة

— هذا إذن ؟

وقامت إليه فتراجع إلى الوراء حتى التصق بالنافذة ووقف أمامها يحرق فيها وعيناه فارغتان ثم شد رأسه وأغمض عينيه

— سامحيني يا سارة ..انه التعب..لقد وجدت يدك باردة...وسارة ليست كذلك..كان علي

أن أفهم أن ذلك من تأثير البرد وأنت تمشين حافية بين الصخور..



— سأقودك إلى فراشك

— عديني ألا تفعلني ذلك بعد الآن

فكرت مدة

— أعدك

وضمها إليه فارتبكت لحظة ثم طوقت رقبتة بذراعيها

— لقد أخطأت يا سارة.. هل تغفري—ن لني ؟

— لقد غفرت لك كل شيء

وقادته إلى غرفة منزوية ثم عادت فتوقفت أمام النافذة:

لم يكن يحول بينها وبين الظلام غير صفحة رهيبة من الزجاج.

عادت الأتسة س, بعد أسبوع إلى البناية وأسـرعت إلى تفقد شـفروت الصـغير.  
غير أنه لم يستجب لطرق الباب فأوجست خيفة ونظرت من ثقب الباب فادا  
المفتاح في القفل وتأكدت من أنه يعمد إلى تجاهلها. ما الذي حدث ؟ هل  
استعاد ذاكرته تماما فأصبح يخاف منها كما يخاف من الكابتان ك, ؟  
صعدت إلى غرفتها وفتحت النافذة على الخلاء فتركز نظرها في جهة  
من المزرعة: ماذا يفعل هذا الرجل داخل مزرعة الكابتان ك.؟ وتراجعت  
نحو الباب ثم أسرعت نحو بيت أبيها.

- ما الذي حدث هذا الأسبوع ؟ أين شـفروت الصـغير ؟ أين الكابتان ك. ؟
- شـفروت الصـغير ؟ انه في غرفته لا يفتح الباب لأحد. حتى النافذة معلقة..أكتفي  
بوضع الطعام أمام الباب..وأظن أنه لم يتعشش البارحة..
- ماذا حدث ؟
- لاشك أنه بدأ يعرف أنك لست بسارة
- هكذا إذن .. والرجل في المزرعة ؟
- هل رأيته أنت أيضا ؟ هو شـفروت الكبير، رجل من الحي، لاشك أن أمرا سيئا سيحدث إن  
اعترضه الكابتان ك.
- هيا معي
- إلى أين ؟
- نقتعه بفتح الباب

— ستفشلين .. انه الخوف .. كان في الماضي يتعزى بوجودك .. ولكنه استعاد ذاكرته  
تماما .. لقد حدثني عما فعلت به ...

فنهرته بحقد وقد حال وجهها

— تتجسس علي أيها الكلب .. انه خطئي أن كنت أحملك من الكابتان ك. هذا جزائي ..

— لم أقل شيئا .. أنا أفسر فقط كيف بدأ يشك في أنك سارة ..

فقاطعته بلذة

— ذاك هو الثمن.

فرد من غير اقتناع

— أن تخضعيه لممارسات كالتي فعلت .. أن ينزع ثيابه في البرد .. أن يجلد في البرد ، أن  
يقيد إلى الفراش في البرد عاريا ..

— أيها الحقيير .. نسيت أن ذلك بسبب أصلك الحقيير أنت والعاهرة زوجتك ..

— اصمتي

— كان علي أن أعين على قتلك.

واندفعت خارج البيت حتى إذا بلغت غرفة شفروت الصغير بدأت تطرق الباب بجنون وهي تصيح

— هذه آخر فرصة .. أمرك بفتح الباب .. أنا أمرك .. هذه آخر فرصة ..

وانفتح الباب

— ما الذي يحدث لك؟

وتعودت على ظلام الغرفة فبحثت عن شفروت الصغير حتى إذا رأته قرب النافذة المغلقة تقدمت منه

وهو يتراجع نحو الحائط وشدته من شعره بغيظ وهي تصرخ

— ستفهمني كل شيء هذه المرة .. افتح النافذة ..

وعندما رأته تردده اندفعت ففتحتها وهي تصيح

— من هو هذا الصعلوك قرب نافذتك؟ لا تريد أن تنطق؟ حسنا..

وشدته من شعره من جديد وبدأت تجره خارج الغرفة وتوقفت عند منتصف الطريق وهي تحول بصرها بحذر بين الأشجار الملتفة بالظلام وحول البئر ثم واصلت سيرها نحو غرفتها وأجلسته قبالتها حول الطاولة والمزهر ذي الورود الوحشية الذابلة المسودة

— ما علاقتك بهذا الشخص؟

وقامت إلى سوط معلق في الحائط وهي تأمر

— انزع ثيابك

فخاف وتمتم

— كليير.. الخيط.. الخيط الأحمر..

— ما هذا الذي تقول؟ انزع ثيابك..

وجذبتة من قميصه فتمزق جزء منه

— أنا أمرك

وانهالت عليه جلدا فتراجع نحو الحائط يحاول تلافي الضربات وتشبث بقبضة النافذة حتى لا يسقط، عندها توقفت لحظة ثم دفعته بعيدا وهي تفتح النافذة على مصراعيها وتجيل النظر في الخلاء إلى أن وقع بصرها على الرجل الواقف تحت الأشجار في المطر فنادته بأعلى صوتها الهائج

— لا تخف.. شفروت الصغير يطلبك

واقبلته كالمجنونة عند الباب

— هيا.. لا تقف هكذا أيها الغبي.. ما ذا تفعل في المزرعة؟

بقي شفروت الكبير ينظر في غير فهم إلى شفروت الصغير المستند إلى الحائط فنهرته من جديد

— قل له إن حكاية كليير من صنع خيالك المريض..

— كليير ؟

— أليست هذه هي الرابطة بينكما؟ هيا قل له..

فازداد شفروت الكبير غياب

— كليير .. الخيط الأحمر خيال ا

وتمتم

— مستحيل

— أنا أمرك

— ورغم ما تقولين فانا أعرف أن ذلك لم يكن خيالا ، الوجه .. استل موسى صغيرة.. هكذا

وبحركة ما..

في هذه اللحظة لمح شفروت الكبير صديقه ينتصب فجأة. وخيل إليه في نفس اللحظة أن وجه

الآنسة س.. ولم يتفطن إلى ما حدث.. وجد نفسه يحمل في يده بقايا زجاجة

رأها على الطاولة عندما دخل.. كان شفروت الصغير ممددا

على الأرض لا يبدي حراكا وكانت الآنسة س. قد غطت وجهها بيديها : لم

تصرخ هي بدورها ، لم تبد أي حركة، لم تفهم هي بدورها أي شيء..

وترجع السجين القديم نحو النافذة ينظر حيناً إلى الزجاجاة

وحيثنا آخر إلى المرأة الصامتة. وانفجر صوت في موت الغرفة:

— لقد قتلته .. لقد قتلته...

هرب شفروت الكبير نحو الجبل.. كان يقدر أن الحى يغلى الآن غليان  
المرجل..

كل واحد يود شنقه عرف القصة أم لم يعرف. أليس الناس من أول وهلة  
مع القانون؟

يومان مرا لم يأكل فيهما شيئاً ومع ذلك لا يحس بالجوع ولا يدري لم يهرب من مصيره.. انه يعرف  
أن الطريق أمامه مسدودة بل أكثر من ذلك لم يعد يهمة من حياته شيء... لقد فقد الإحساس  
بالأمل منذ زمن بعيد ، فقد منذ أن رأى الخيط الأحمر في وجهه (كلير). قبل  
ذلك كان ثقل الأمل يهد ظهره. ولقد مات أماله

بعد ذلك.. أصبح خفيفاً كالهواء. وحتى اندفاعه مع أمين كان يحدث في أثناءه أنه يحاول أن يملأ  
فراغاً ، لا أكثر. لقد كان بحاجة إلى من يبرر له سخافة وضعه بربطه  
بعالم متدهور كله. ولقد وجد ذلك في أمين.. كان حدسه يقول له إن  
الزقاق الذي ولد فيه لا يمكن بحال من الأحوال أن يؤدي إلى الشارع... ومع ذلك يود  
الآن أن يبقى أطول مدة بعيداً عن قبضة البوليس ، مع نفسه ، بين هذه الصخور الباردة كقلبه  
والمخابئ التي طالما تتبع خطوات شفروت الصغير بينها أثناء بحثه عن سارة المتخفية وراء  
الأعشاب.. لا خوفاً من الشرطة أو الموت .. وهؤلاء الناس يجرون وراء رأسه لأنه  
قتل صديقه الوحيد الذي أحب بعمق، لأنه قتل نفسه. ان الرب نفسه إن وجد لا  
يمكن أن يفهمه..الوحدة.. أنت مجرم..السن بالسن والعين بالعين..

يومان مرا لم يأكل فيهما شيئاً..كل شيء في جسده مات غير حاسة السمع..كان يهلح لكل حجر صغير ينحدر من عل ولكل طائر يفاجئه بالطيران أو حشرة تصطم في عماها بالأرض..وأحيانا يهلح للاشيء، لوهم حجارة تنحدر وطائر يطير وحشرة تحط.. ما هو الموت ؟ أهو الخوف لحظة الانفصال؟ أهو مجرد تأثير الصور المخيفة المحدثه عن البعث وتوابعه؟ أم هو الحس السابق لأوانه بالحبل البارد يمس رقبتة المتصبية عرقا بإرادة بعض البيروقراطيين تعودوا على تنفيذ مثل هذه الأحكام حتى غدت شبيهة بالنوم مع زوجاتهم في جهل بربوبية قضائهم ؟

شفروت..شفروت.. -

ارتعدت فرائصه والتصق بجدار الغار المظلم المليء بالأشواك..وزداد الصوت اقترابا.. وتوقف المنادى قرب الغار وبدأ يطوف بعينيه في الصخور الكبيرة والحشائش الملتفة

- أنا أعرف أنك هنا.. لا تخف.. أنا حمادي..

بقي على صمته يتسمع حركات القادم فبقي حمادي قرب الغار مدة ثم بدأ يبتعد..وأحس شفروت بغرابة موقفه إحساسا ساما فزحف مقدار متر على الحشائش الشائكة ثم انتصب خارج المغارة وبقي ينظر إلى حمادي يطوف بالصخور واحدة واحدة وهو يكرر نداءه..والتفت حمادي فرأى شفروت ينظر إليه في صمت ثم يقترب منه إلى أن وقفا وجها لوجه

- ماذا تريد ؟

- لاشيء

كان بيده قرطاس فتحه وأخرج منه بعض الخبز والمرقاز والفلفل ومد كل ذلك إلى شفروت

- أعرف أنك جائع... لقد حملت إليك هدا..

- ماذا تريد ؟

– أنت خائف مني.. عندك حق.. لكنني لست حمادي القديم.. لن أبيعك بألف دينار

ومد يده إليه

– نحن متشابهون يا شفروت ... ولا يمكن للواحد منا أن يقتل صاحبه إلا خطأ

..أنا أحس بهذا في أعماق قلبي..

وألح عليه فأخذ الخبز ووضعه جانبا وبقي كل واحد منهما ينظر إلى صاحبه في صمت هادئ ثم حول

شفروت نظره إلى الصخور... كان وجهه أسود وفي عينيه سجرة

– لم جئت إلى هنا؟

– لقد أردت أن أراك.. آخر مرة.

– ؟

– إنها غريبة قصة أحسن من في الحي... لم يبق منهم أحد في ظرف عام.. سارة ،

شفروت الصغير، أنت، وحتى عائشة.. لكن اللعنة حلت بهذا الحي.. هو

يرفض الدخلاء... وشفروت دخیل، وسارة، وأنت كذلك.. حتى أنا

بدأت أحس منذ أن تعرضت لشفروت أنني أجتث من عروقي.. وليس عندي

الآن غير هذا الشعور بأن شبكة خفية تجذب من تبقى نحو البحر.. البحر الأسود

ياشفروت.. داك الذي قتل سارة، وليس البحر الآخر.. ألا تحس هذا البرد؟

هذا البرد الآتي من المحيط؟ انه النداء.. نداء العلق في الأعماق.. لا

مكان للشمس في هذه الجهات...

وتدثر بمعطفه البالي وهو يقلقه ثم أخذ يد شفروت وأبقاها بين يديه

– لكأنني ولدت من جديد يوم أفقت على حب سارة شفروت

الصغير.. كنت أظن الغلبة للقوة الجسدية، وعملت على فرض إرادتي حتى على

سارة.. ولكن شيئا ما كان يقف حائلا بيني وبينها... يوجد شيء غامض يضي



على ابتسامتها تصنعاً مقيتاً لترضي غروري..إلى أن جاء شفروت..ومن وقتها بدأت أفهم وحاولت أن أدفن همي في حب جديد..سعاد.. ولكنني هذه المرة اكتشفت من الأول أنني أمشي في طريق مسدودة..كان كل ما في الكون الذي أعرفه يعمل ضدي..لقد أحسست فجأة بما فاتني أن أحس به منذ ولدت، أحسست أنني من الأول قد أخطأت الانطلاق...

وتململ شفروت

— أنت أيضاً ؟

— ؟

وسحب يده من بين يديه وهو يغطي وجهه

— آه يا ربي.. لقد حاولت من كل قلبي وأنا أخرج من السجن أن أتعلق بأفق جديد..كان كل أملي أن ينسخ إيماني بمجتمع أفضل ما علق بذاكرتي من صور مروعة..ولكن..لكأني كنت معتقداً من الأول أن الإنسان اذا كان منطلقه سيئاً..إنها حتميتي، حتمية أقوى من الدين.

ونظر جهة الحي البعيد فتركز نظره على نقاط سوداء تتحرك وتتضخم...ولاحظ حمادي اهتمامه فحول بدوره بصره نحو الحي ثم صاح — إنهم يبحثون عنك...لقد اكتشفوا مخبأك..

وصمت لصمت شفروت وهو يحاول أن يقرأ أفكاره ثم غمغم

— هل تشك في ؟

— ما الفائدة ؟ أعرف منذ يومين هذه النهاية..ولقد تعبت..لا أود أن يطول هذا العذاب..

وتشبث به حمادي

– أتظن أنني..؟

– لا يههم .. إن الثقة ثقيل.. كالحب.. كالإيمان..

-- كان يتحدث بتعب وهو يتابع تضخم النقاط السوداء تتسلق الجبل

– ليس في الحقيقة شيء يههم.. والآن وقد ضاع كل شيء أحس أن شفروت الكبير بحقارة المتمعش

والنادل الذي كان يساوي أكبر نبي .. ما كان أجهل أملي !!

وأضاف بصوت مجنون والنقاط السوداء المتضخمة تمسح رجال شرطة قد أخفوا أمامه وجه الحي

السعيد

خذوا الأمل اللـذيذ .. هيا أيها المتشابهون .. هيا

الحي الجامعي .رأس الطابية تونس.1971

الغلاف :محمد حمدان

دار الحوار للنشر والتوزيع – سورية– اللاذقية

ص ب 018 – هاتف 22339